تمظهرات الهوية الوطنية في كتابات المفكر الجزائري "حنفي بن عيسى".

The manifestations of national identity in the writings of the Algerian thinker “Hanafi Benaissa”.

مختارية بن عابد*

جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم (الجزائر)

mokhtaria.benabed@univ-mosta.dz

تاريخ الارسال: 2021-07-20	تاريخ التقييم: 2021-12-17	تاريخ القبول: 2021-12-30

الملخص:

زخرت الجزائر ولا تزال برجال عظام لم يبخلوا بأي شيء في سبيل الدفاع عنها والمساهمة في بنائها، بقيت أسماؤهم وأعمالهم خالدة شاهدة على عطاءاتهم وتضحياتهم، وإن لم يوفّوا حقّهم كما يجب، وهذا أمر مؤسف حقا، لنجد أحد هؤلاء من أعلام الفكر والأدب المرحوم "حنفي بن عيسى" المبدع الأدبي والكاتب الجزائري ذو شهرة عالمية في الترجمة، متقن لعدة لغات، عرف بالدراسات الأكاديمية الدقيقة في مجال علم النفس اللغوي، قد تجلّت هويته الوطنية، وبرز حبه لبلده من خلال كتاباته المختلفة كالقصص القصيرة الثلاثة التي كتبها أثناء حرب التحرير المجيدة؛ وهي "في حي القصبة" (1959)، "عائدون" (1960)، "الشمس لا تشرق من باريس" (1961)، وكذا ترجمته لكتاب "من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية" لأحمد طالب الإبراهيمي، وكتاب "الجزائر الأمة والمجتمع" لمصطفى الأشرف...، وغير ذلك.

وسنحاول هنا تسليط الضوء على شخصية هذه القامة التي ناضلت بقلمها من أجل بلادها وساهمت في بنائه وتطويره، وأن نبرز ملامح هوية هذا العلَم الوطنية من خلال قراءتنا لإبداعاته المتنوعة.

كلمات مفتاحية: الهوية الوطنية؛ كتابات ومؤلفات؛ حنفي بن عيسى؛ القصة القصيرة؛ الترجمة.

Abstract:

Algeria is full of great men who have spared no effort to defend it and contribute to its construction. Their names and works remain immortal and witness to their tenders and sacrifices, and if they do not meet their right, let us find one of these

writers and thinker Hanafi Benaissa, a world-renowned translator, well-known in several languages, known for his meticulous academic studies in linguistic psychology, whose national identity has been manifested, and his love for his country has been manifested through his various writings, such as the three short stories he wrote during the Glorious War of Liberation; Kasbah(1959), "Returnees" (1960), "The Sun Does Not Rise From Paris" (1961)...

Here we will try to highlight this character who fought for her country and contributed to its construction and development, and highlight the features of her national identity by reading her various creations.

Keywords :National Identity; Writings and books; Hanafi Benaissa; Short Story; Translation.

* المؤلف المراسل.

1.مقدمة:

مما لا شك فيه أن الهوية الوطنية هي أعظم وأغلى ما يفخر به كل مواطن، إذ إنها تمثل رمز عزّته، وعنوان سيادته، وواجب عليه المحافظة عليها، فالحديث عن الهوية الوطنية حديث انتماء إلى وطن، وكل إنسان يحمل في نفسه انتماء إلى وطنه وحبا له، يعبر عنه بمنطقه ولسانه وقلمه وسعيه واجتهاده.

وهذا ما نلمسه في شخصية الكاتب الجزائري والمبدع الأدبي الدكتور "حنفي بن عيسى" الذي تجلّت هويته الوطنية، وبرز حبه لوطنه من خلال أعماله المتنوعة، ومؤلفاته المختلفة سواء التي كتبها باللغة العربية أو التي قام بترجمتها، على الرغم من أن هذا الفقيد المخلص لوطنه قد جاهد وغادر في صمت، لذلك سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نسلّط الضوء على شخصيته المذهلة من خلال إبراز ملامح هُويته الوطنية من خلال قراءتنا لبعض إبداعات هذا المناضل بقلمه من أجل بلاده، وذلك من منطلق يقيننا أن أي كاتب لا يعبر في كتاباته إلا عن آراءه ومواقفه الخاصة، وما يؤمن به شخصيا من قضايا.

وذلك انطلاقا من الإشكالية المطروحة كالآتي: من هو "حنفي بن عيسى"؟ وكيف تجلّت هويّته الوطنية في كتاباته المتنوعة؟. وللإجابة على هذين التساؤلين تم حصر الفرضيتين التاليتين: "حنفي بن عيسى" كاتب وأديب جزائري ساهم بقلمه في الدفاع عن وطنه وخدمته وإعادة بناءه، "حنفي بن عيسى" صاحب روح وطنية عالية تظهر جلية في مؤلفاته وكتاباته المختلفة القيمة.

2. نبذة عن الكاتب الجزائري "حنفي بن عيسى":

الدكتور "حنفي بن عيسى" كاتب جزائري، وباحث مختص في علم النفس التربوي، ومهتم بالترجمة تنظيرا وتطبيقا، من مواليد الجزائر العاصمة سنة 1932م، خريج جامعة دمشق في التربية وعلم النفس سنة 1961م، ومتحصل من جامعة الجزائر على دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس اللغوي وقضايا الاتصال سنة 1971م، واشتغل أستاذا بمعهد علم النفس بجامعة الجزائر[1].

نال شهرة عالمية في الترجمة، وأتقن عدة لغات؛ مطّلع على الآداب العربية والعالمية، والجميع يعترف له بالكعب العالي في الترجمة، سواء للأعمال الأدبية الجزائرية التي نقلها من الفرنسية إلى العربية، أو للأعمال التي عهدت إليه بها منظمة اليونسكو، والتي نقل بعضها عن الإنجليزية، أو الدراسات الأخرى التي عمّقت تلاحمه بالتاريخ الوطني والثقافة الإنسانية[2].

كتب أثناء حرب التحرير المجيدة ثلاث قصص قصيرة بمجلة الآداب البيروتية، هي "في حي القصبة"[3](فبراير 1959)، "عائدون"[4](نوفمبر 1960)، "الشمس لا تشرق من باريس"[5] (جوان 1961)، وقصة "في حي القصبة" التي اختارت منها وزارة التربية الوطنية حديثا نصا بعنوان (فداء الجزائر) لمستوى السنة الأولى متوسط، (الجيل الثاني من مقاربة التدريس بالكفاءات المعتمدة في إطار الإصلاح التربوي)، والغريب في الأمر أن العديد ممن كتبوا عنه وهم قلة لم يذكروا أن "حنفي بن عيسى" هو في حقيقة الأمر مبدع أدبي، من الفئة التي ناضلت بقلمها أثناء حرب التحرير الوطنية.

ومن مؤلفاته[6] أيضا: " محاضرات في علم النفس اللغوي"، "تعلم لتكون" بمشاركة منظمة اليونيسكو، "نتعلم ونعمل" تحت إشراف اليونيسكو، "النظام التربوى الحال والمآل"،

"الثقافة في الجزائر ماض وحاضر"، "فن الترجمة تنظيرا وتطبيقا" كما ترجم عدة كتب نذكر منها: "رصيف الأزهار لا يجيب" رواية للأديب الجزائري الراحل "مالك حداد"، و"الدروب الوعرة" رواية للشهيد "مولود فرعون"، و"من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية" لأحمد طالب الإبراهيمي، و"الجزائر الأمة والمجتمع" و"الجزائر في تاريخ الحضارة" لمصطفى الأشرف. وعلى حدّ اطلاعي لم تشر العديد من المصادر إلى أن المترجم "حنفي بن عيسى" قد ترجم للمناضل "أحمد عكّاش"[8] قصة "الزنزانة السابعة لم تعد تجيب" التي كتبها في زنزانته في السجن عام 1957م. وتم نشرها بمجلة الآداب اللبنانية سنة 1958م، في عددها الخامس، في الصفحتين 49-50.

فقد غادرنا في صمت هذا الأديب المتميز والمترجم البارع والمفكر الكبير سنة 1999. ولعلّه من الغرابة حقا أن لا وزارة التربية الوطنية، ولا مؤلفوا كتاب اللغة العربية للسنة الأولى متوسط، ولا أساتذة التعليم المتوسط، تعرضوا لحياته ولتاريخ وفاته، بل إنهم لا يعلمون حتى أنه متوفى، لأنه لا يوجد مرجع يشير إلى ذلك، حتى موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين (منشورات دار الحضارة – 2014) أشارت لتاريخ ميلاده وبعض مؤلفاته، ولم تشر إلى وفاته. والمؤسف من ذلك أن الدولة الجزائرية لم تتذكره إلا بعد ثماني عشرة سنة من رحيله، لتسدي له وسام الاستحقاق الوطني بدرجة "جدير" بتاريخ 24 ماي 2017 [8]، وكان من الأجدر أن تُجمع وتنشر أعماله المتفرقة، من قصص ودراسات، وكتب مؤلفة ومترجمة، فذلك هو الوسام الحقيقي الذي لا يبلى، ومحق من قال أن العبرة في الإبداع لا تقاس أبدا بالكم؛ لأن المؤلفين الذين يراهنون على الكمّ تبقى أعمالهم مكدسة لا يلتفت إليها أحد.

3. الهوية الوطنية:

إن مفهوم الهوية بشكل عام تتجاذبه تخصصات مختلفة (علم النفس، علم الاجتماع، العلوم السياسية، الفلسفة...)، ولعل أبسط تعريف لها أنها: « ثوابت الشيء التي تتجدّد ولا تتغيّر، فهي كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميّز بها عن غيره، وتتجدّد فاعليتها »[9]، ولذلك فإن الهوية الوطنية تعبر عن جوهر الشيء وحقيقته التي تتجدد ولا تتغير، وهي

الإحساس الداخلي للفرد الذي يتشكل ويكتسب من أخلاقيات الحياة الاجتماعية التي نعيشها، سواء عن طريق التعلم أو الممارسة والإدراك، وهي المعبّر الحقيقي عن خصوصية وتاريخ المجتمع الذي تشكلت فيه، وتنتمي إليه بكل مكوناته السياسية والاقتصادية وفق منظومة متكاملة من المعايير والقيم والأخلاق والمعتقدات والقوانين السائدة التي تشكل الهوية.

وعليه يمكن تعريفها على أنها: « مجموعة من المعتقدات والقيم والتقاليد الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تبلور نظام الحياة وبيئته، والتي تميز مجتمعا عن غيره، والتي تكونت خال فترة زمنية طويلة»[10]، أو « مجموعة الخصائص ذات الأبعاد التاريخية والسياسية والاجتماعية الثقافية التي ينفرد بها الشعب داخل الدولة الواحدة دونا عن غيرهم، وتمثل قاسما مشتركا لكل أفراد الوطن الواحد »[11]، وتحتوي الهوية الوطنية على مجموعة من المكونات والعناصر، نذكر منها:

- **الدين** الذي ينتمي إليه المجتمع تاريخيا، وهو دين الدولة الجزائرية.
- **اللغة** كوعاء رمزي ومحتوى حضاري، وهي عندنا اللغة العربية.
- **الثقافة** سواء كانت مادية أو غير مادية، مشتملة على السمات الفكرية والفنية وأساليب الحياة في المجتمع... إلخ.
- **التراث** باعتباره تعبيرا ٍ رمزيا ٍ أو شكليا يظهر الكثير من تاريخ المجتمع.
- **القيم** باعتبارها موجها للأفراد نحو السلوك الإيجابي المرغوب فيه.
- **الولاء** وهو حالة شعورية تربط الشخص بما يحيط بمجتمعه من قضايا.
- **الانتماء** ويعني انتماء الشخص لدولة وحمله لوثيقة سفرها.

4. ملامح الهوية الوطنية في أعمال "حنفي بن عيسى":

من خلال قراءتنا لمجموعة من كتابات الدكتور "حنفي بن عيسى" تمكّنا من تحديد ملامح هويته الوطنية؛ وتمظهراتها فيما يلي:

1.4 اللغة:

تعدّ من أبرز مظاهر الهوية الوطنية، وأحد أهم عناصرها؛ وهو معروف أنّ انتساب أي شخص إلى بلده أو جنسيته يكون من خلال لغته ولهجته، ولذلك فإن الهوية اللغوية تتجلى في حديث الشخص بلغته الوطنية، وهي في بلدنا الجزائر اللغة العربية. وهذا ما تجلى بوضوح في لغة أعمال الدكتور "حنفي بن عيسى"، سواء الكتابات المدونة بقلمه، أو التي ترجمها عن غيره.

أ- **في كتاباته الخاصة:** لقد برزت الهوية اللغوية لـ "حنفي بن عيسى" في كتاباته الخاصة حيث جاءت مدونة باللغة العربية التي برع في إتقانها والإبداع بها، ويمكن أن نلمس ذلك مثلا في كتابه محاضرات في علم النفس اللغوي، وكذلك في القصص القصيرة الثلاثة التي كتبها أثناء حرب التحرير المجيدة بمجلة الآداب البيروتية، هي "في حي القصبة" (فبراير 1959)، "عائدون" (نوفمبر 1960)، "الشمس لا تشرق من باريس" (جوان 1961)، ففي هذه القصص الثلاث قد ارتقت لغة "حنفي بن عيسى" إلى اللغة الأدبية الفنية ذات الأسلوب الجمالي.

ويجدر بنا الإشارة إلى أنه قد انقطع عن الكتابة القصصية بعد الاستقلال، وهذا قد أثار الكثير من الأسئلة؛ لأنه كان مبدعا متفوقا في هذا الجنس الأدبي فنيا وموضوعيا، حيث يذكر أحد تلامذته المدعو "جيدل بن الدين" أنه عندما كان يسرّ لأستاذه حنفي – على هامش محاضراته في مقياس علم النفس التربوي بالمركز الوطني لإطارات التربية (1987/1986)- بجديده القصصي، لم يذكر له "حنفي" أبدا أنه جرّب كتابة القصة القصيرة في حياته[12].

ب- **في ترجماته إلى اللغة العربية:** إن الهوية اللغوية التي تعني الحديث باللغة الوطنية لا تمنع أبدا من التحدث بلغات أخرى، بل الواجب إتقان اللغات الأجنبية التي كانت ولا زالت ضرورة حتمية من أجل الإطلاع على أعمال الغير بغية الاستفادة منها، وكذا مواكبة التطور ومسايرة العصر، حيث تعد الترجمة من أهم وسائل العلم والمعرفة.

وهذا ما توفر بشكل متميز في مبدعنا "حنفي بن عيسى"، فلا أحد ينكر أنه كان متميزا في الترجمة، نظرا لإتقانه لعدة لغات، وإطلاعه الواسع على الآداب العربية والعالمية، والأهم من ذلك أنه كان مجتهدا في ترجمة الأعمال الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، كترجمته لـ

"مصطفى الأشرف"، و"أحمد طالب الإبراهيمي"، و"مالك حداد"، و"مولود فرعون"... وغيرهم، ومن بعض الدلائل على إثرائه للمكتبة الجزائرية وإتقانه لفن الترجمة، شهادة ناشر كتاب "مصطفى الأشرف" الذي ترجمه "حنفي بن عيسى" على الغلاف، يقول فيها: «نقدّم للقارئ هذا الكتاب "الجزائر: الأمة والمجتمع" الذي نشر باللغة الفرنسية سنة 1968م، ونقله إلى العربية في أحسن ترجمة المرحوم "حنفي بن عيسى" سنة 1983م، وتكريما للمفكر المناضل، وعرفانا للأستاذ المترجم الذي قدّم الكثير لإثراء العمل التعريبي ننشر هذا الكتاب... »[13].

وكذلك في مقارنة بين ترجمة "حنفي بن عيسى" وترجمة "أحمد نظير" لرواية (رصيف الأزهار لا يجيب) لمالك حداد، تبيّن أن الأول قد تفوّق في عدة مقاطع من ترجمة هذه الرواية، ولم يقع في بعض الأخطاء التي وقع فيها الثاني، وهذا ما يتضح في النص التالي: « وفّق "حنفي بن عيسى" في نقل دلالة العنوان في النص الأصلي، وذلك من خلال اعتماده على الترجمة الحرفية، أما "أحمد نظير" فنجده يكتفي بالشطر الأول من العنوان وبترجمته (رصيف الأزهار)...، وما يمكن ملاحظته هو محافظة "حنفي بن عيسى" على تقسيم الفصول والفقرات، في حين يصل عدد الفصول عند "أحمد نظير" إلى ستة وعشرين فصلا، ويعني أن هذا المترجم قد لجأ إلى دمج بعض الفصول بعضها ببعض، ولم يحترم نظام الترقيم، وتوزّع الفقرات على مساحة النص المصدر...، إن "أحمد نظير" كان يحاول في ترجمته الاقتراب من شعرية النص، في حين أن "حنفي بن عيسى" كثيرا ما كان يتسرّع في الأخذ بالدلالة العامة، ولكن هذا لم يمنع من أن يتفوّق "حنفي بن عيسى" في بعض مقاطع ترجمته على "أحمد نظير". ويعود هذا في نظرنا إلى اشتراك "حنفي بن عيسى" و"مالك حداد" في الانتماء إلى المجتمع نفسه، وبالتالي معرفة السياق الحضاري والثقافي الذي أنتج النص، وجهل هذه الخصائص هو الذي أدّى بأحمد نظير إلى تحريف وتشويه بعض الأسماء، مثل ترجمة (قسنطينة) إلى (قسطنطينة)...، كما قام بتعريب عبارة (جبل الوحش) بـ (جبل أواش)، والأصحّ كما ترجمها "حنفي بن عيسى" (جبل الوحش)، وهو جبل معروف بمدينة قسنطينة »[14].

فهذا الأمر يوضح بشكل لا يدعو للشك عن حب الرجل للغة العربية من جهة، وعن اهتمامه الكبير في نشر الوعي في مجتمعه من خلال هذه الترجمات التي تتناول الكثير من قضايا وطنه من جهة أخرى، من مثل قضية التعليم الفرنسي لأبناء الجزائر، والحذر أثناء القيام بذلك، والتي وضّحها "أحمد طالب الإبراهيمي" بقوله: « لكن المستعمر كان من جهة أخرى حريصا على أن لا تستفيد جماهير الشعب من نعمة هذا الغزو الثقافي، لأنه سلاح ذو حدّين، وذلك أنّ رفع المستوى الفكري لدى الشعب، حتى ولو حصل عن طريق اللغة الفرنسية، قد يؤدّي إلى المطالبة بالتحرر السياسي، ولذلك فلابدّ من حصر التعليم في أقلية محدودة، ولابدّ من فرض القيود على قبول التلامذة من أبناء الأهالي في المدارس »[15].

وكذلك قضية الازدواجية اللغوية في المجتمع الجزائري التي طرحها "مصطفى الأشرف" قائلا: « لا يجوز انتقاص اللغة الدارجة شأنها بالموازنة بينها وبين الفصحى، كما لا يجوز أن نعتبرها لغة صالحة للتعليم والتدريس، على أن الشيء الثابت هو أنها أداة طيّعة للتفاهم في المجتمع الجزائري، ووسيلة ممتازة بواسطتها تكتمل الثقافة القومية، إذ تحتوي على مجال هام، وهو مجال التعبير الشفوي »[16]...، وغير ذلك من القضايا التي لا زالت تلقي بظلالها على الجزائر اليوم.

2.4 الانتماء والولاء للوطن الجزائري: وهذا الشعور لا ينبع إلا من حب كبير للوطن، ويمكن لأي شخص أن يستشف هذا الأمر في الجزائري "حنفي بن عيسى"، ويستظهره في أعماله المتنوعة، ولا بأس أن نورد بعض النصوص من قصصه التي تعبّر بشكل واضح عن حب الكاتب لوطنه، وروح الانتماء التي تغمره، من ذلك قوله في قصة "في حي القصبة": «ومنهم ماسحو الأحذية الذين يرددون الأناشيد الوطنية التي تعلموها في حياتهم المضطربة»[17]. في هذا المقطع يصور الكاتب الوضعية المزرية والحياة المضطربة التي كان يعيشها أغلب الأطفال والشباب الجزائريين أثناء فترة الاستعمار، وكذا الأعمال الوضيعة التي فرضت عليهم، إلا أن ذلك لم يفسد أفئدتهم ولم يجرّدهم من وطنيتهم وفخرهم ببلدهم، فتجدهم يرددون الأناشيد الوطنية عل أمل أن يسطع نور الحرية على أرضهم.

وقوله في موضع آخر": « كيف يلذّ لي أن أجلس على كرسي الدراسة، وأنا أعلم أنّ بعض زميلاتي، ولا أتحدث عن الزملاء، قد هجرن مقاعد الدراسة، والتحقن بجيش التحرير»[18].

فهنا تجسيد للتعلق الشديد بالوطن، حيث آثرت الشخصية البطلة "لطيفة" وطنها على مستقبلها ودراستها، ورفضت البقاء في مقاعد الدراسة ومشاهدة ما يحدث، على غرار ما فعلته زميلاتها اللواتي التحقن بجيش التحرير من أجل النضال، وما هذه الصورة إلا انعكاس عن خلجات "حنفي بن عيسى" الجياشة اتجاه الوطن.

وفي قصة "الشمس لا تشرق من باريس" نجد "حنفي بن عيسى" يكن كل الاحترام لأي شخص لديه حب وولاء لوطنه، ولا يبخل بشيء من أجل خدمته، حتى ولو كان من أعداءه، وهذا ما استوحيناه من قوله عن السيد (فيبو) رئيس مركز البوليس في شارع (دي الصوصي) بباريس، حيث يقول: « السيد فيبو متحمس لوطنه إلى درجة أنه اقتبس جميع الوسائل التي كانت تستعملها الجيستابو، إنه شخص يحب وطنه وهو من أجل ذلك يستحق وسام الشرف »[19].

كما يقول في موضع آخر: « لقيته بعد أسبوع في مطعم يعد مأكولات وطنية، كثيرا ما كنا نلتقي في ذاك المطعم الذي يديره أحد المواطنين...»[20]، ليصور حنينه للجزائر ولكل ما يذكّره بها، من خلال اعتياد شخصية القصة الملقبة بـ"سقراط" مع زميله الذهاب إلى أحد المطاعم التي تعد المأكولات الجزائرية، والتي يديرها مواطن جزائري، للتحدّث عن أخبار الوطن، وما استجدّ فيها من أحداث، كما كان ذلك فرصة له للالتقاء بالكثيرين من أبناء وطنه هناك.

وقوله أيضا: « غدا ستشرق الشمس على باريس، ولكن شمس بلادي لا تشرق من باريس.. وقلت وأنا لا أزال أحدق في السماء: يا إلهي كيف يمكن أن تكون أرضنا قطعة من أرضهم؟ ماذا يوجد من تشابه بين بلادنا وبلادهم؟ »[21]؛ فهنا على الرغم من بعده عن وطنه، وعيشه مرارة الغربة، وعلى الرغم من أن الشمس تشرق دائما على باريس إلا أنه لا يحس بها ولا ينعم بدفئها، إلا إذا كانت تشرق على أرض وطنه وهو بين أحضانه، وإن كان التعبير هنا مجازيا إلا أنه معبر عن حقيقة الشعور؛ لأن هناك شمس واحدة فقط تشرق على جميع الأوطان، فهو لا يحس بأي انتماء إلى باريس (فرنسا)، ولا يرى أي تشابه بين هذا البلد وبين وطنه العزيز، ولا مجال عنده للمقارنة بينهما، ولا يمكن بأي حال أن يكون وطنه قطعة أو

جزءا من فرنسا. هذه هي روح الانتماء التي حاول "حنفي بن عيسى" تجسيدها في هذا الكلام، لأنها منبعثة من داخله، فلا يوجد أرض تضاهي أرض الآباء والأجداد.

ومثال آخر من قصة "عائدون" يقول فيه: « منذ زمن بعيد لم يشاهد البحر ولم يقف على شاطئه الصخري متأملا حالما، كان يؤثر المصايف الجبلية القريبة من العاصمة »[22]، إنه الحنين إلى الوطن، وروح الانتماء هي التي تؤدي إلى مثل هذه الكتابات، وإلى مثل هذه التعابير والإيحاءات.

أما فيما يخص ترجماته فمثلا ترجمته لكتاب (الجزائر: الأمة والمجتمع)، وكتاب (من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية)، فالروح الوطنية جلية من خلال العنوانين ومعبرة عن ميوله للمؤلفات التي تعنى بقضايا وطنه، وحتى الروايات التي ترجمها "حنفي بن عيسى" لم تكن في منأى عن هذا الحس الوطني، وهو ما لفت انتباهنا في ما ذكره عن رواية (الدروب الوعرة) لـ "مولود فرعون" التي ترجمها، حيث يقول على غلاف الرواية: « قد يظن البعض أنّ (الدروب الوعرة) مجرد قصة حب وغرام، وغيرة وانتقام، ولكن الناقد سرعان ما يكتشف ما وراء هذه العواطف المحتدمة صراعا بين القديم والجديد، بين الشباب والشيوخ، بين التبشير والإسلام...، قيل عن فرعون أنه لم يكن من الكتاب الملتزمين، ولكن يشفع له على هذا الموقف انه كان من ذوي الإحساس المرهف: فكل رواية له إنما هي أنشودة حلوة يمجد فيها أرض الآباء والأجداد »[23]. فهذا دليل واضح على أن "حنفي بن عيسى" لم يكن ليترجم أي رواية كانت، إنما كان يهتم بالأدب المفعم بالعواطف والأحاسيس المعبرة عن الوطنية، والممجدة لأرض الآباء والأجداد.

3.4 دعم الثورة الجزائرية: مما لا شك فيه أن الشعب الجزائري قد عانى الأمرّين من الاستعمار الفرنسي، وقد حاول جاهدا بكل ما استطاع محاربته وطرده من أرضه، وكان هذا واجبا على كل مواطن غيور على وطنه، على غرار ما قام به الدكتور"حنفي بن عيسى"، الذي يعدّ من النخبة التي ناضلت بالقلم أثناء الثورة المجيدة من أجل إسماع صوت الشعب الجزائري والتعبير عن معاناته، حيث اعتمد القصة القصيرة وسيلة منحت للعالم شعورا بما كان يعانيه الشعب الجزائري من قهر، وأرّخت لصور من جرائم فرنسا الاستعمارية

بالجزائر، وهذا ما يظهر جليّا في ثنايا القصص القصيرة التي سبق ذكرها، ومن ذلك مثلا الإهداء الذي قدّمه في مستهلّ قصته "في حي القصبة": « إلى تلك التي وقفت إلى جانب الرّجل لتدافع عن حياض الوطن، إلى جميلة وأمثال جميلة بوحيرد...أهدي هذه القصة »[24]، فهذا نص صريح على وقوف المرأة الجزائرية وقفة رجل من أجل الدفاع عن الوطن بكل ما تملك من قوة، واستعادة الحرية المسلوبة، وهي حقيقة خالدة في سجلات التاريخ، كمثل هذه الكتابة لـ "حنفي بن عيسى" التي تنطلق من إيمانه القوي بالدور الجبار الذي لعبته المرأة في الثورة الجزائرية، ودعمه واحترامه لها.

وقوله في نفس القصة: « والواقع المرير الذي يعانيه وطني يتجلّى في هذه البيوت التي لا ينفذ إليها النور»[25]، حيث يصور الكاتب جانبا من جوانب الواقع المؤلم الذي يعيشه الشعب الجزائري تحت وطأة الاستعمار، والذي يظهره في البيوت المقفلة بسبب الخوف والقهر، فلم تعد ترى نور الشمس، وهدفه من ذلك هو إبراز حقيقة المعاناة والألم الذي يسكن أبناء الجزائر للعالم.

وليس هذا فقط، بل نجده يفصّل أكثر في هذا الواقع المرير الذي يظهر من خلال صوت المدافع والرشاشات والقنابل، وروائح الحرائق والبارود، وتناثر الجثث التي لم تجد من يواريها التراب...، وغير ذلك من الصور التي تظهر بشاعة هذا المستعمر الذي خرّب وطنه وأحال الحياة فيه جحيما، بعدما كان مكانا جميلا متميزا بالمناظر الخلابة، ينعم أهله بالهدوء والسكينة، بل كان وجهة مفضّلة للسياح الأجانب الذين كانوا يحلمون بزيارته، حيث يقول: « كان وطني حلم السواح الأجانب الذين يبحثون عن الجمال والهدوء والسكينة، ولكن البارود ورائحة الحريق قد انتشر اليوم في كل مكان. أيستطيع السواح الأجانب إذا أتيح لهم أن يزوروا وطني في هذه الظروف أن يتحدثوا عن الجثث التي تتساقط في شوارع المدن من غير أن تجد من يدفنها، يستطيعون أن يسمعوا دمدمة المدفع الرشاش وفرقعة القنبلة اليدوي، وأزيز الطائرة التي تبحث عن المجاهدين في كل مكان من غير أن تعثر لهم على أثر »[26].

وفي قصة "الشمس لا تشرق من باريس" يستهل المبدع "حنفي بن عيسى" سرده باستشهادٍ كان قد كتبه الطالب "بن عيسى سوامي"[27]، ورد فيه: « كنتُ لا أنقطع عن

التفكير، وأنا أتلقى أبشع أنواع التعذيب، في إخواني وأخواتي، في بن مهيدي وجميلة... »[28]، فهنا طبيعي جدا أن صاحب القصة لم يكن ليذكر هذا الاستشهاد في مستهل قصته، لو لم يكن متأثرا أيّما تأثّر بهذا القول، ولو لم يكن متألما لألم إخوانه هؤلاء، الذين كانوا يتلقّون مختلف أنواع التعذيب البشعة من طرف السلطات الاستعمارية الغاشمة.

ويقول في موضع آخر: « إن شمسنا الدافئة التي تنضج الشبان قبل الأوان هي التي ستنفخ الحرية في أرضنا الطيبة»، فهذا تعبير مجازي يدل على يقين كبير بوعي الشباب الجزائري ويقظته، وإيمانه بقضيته، الأمر الذي سيدفعه إلى النضال لنيل حريته واستعادة أرضه الطيبة، وهذا الإيمان واليقين متغلغلان في شخصية الدكتور "حنفي بن عيسى".

هذا بالنسبة لما كتبه بقلمه، أما بالنسبة لترجماته فنجد الإيمان بالقضية الجزائرية حاضرا، ونصرة الثورة المظفرة متمظهرا فيها، بل نلحظ ذلك في أغلب الترجمات الجزائرية إن لم نقل جميعها، فقد « تميزت الترجمات الجزائرية بحس حماسي، قائم على التركيز على إبراز القضية الجزائرية »[29]؛ أي كان الهدف الأساس من هذه الترجمات هو ما حوته هذه المؤلفات من قضايا ووقائع وحقائق الثورة الجزائرية، على غرار ما قام به "مصطفى الأشرف" في كتابه "الجزائر: الأمة والمجتمع" من رفع الستار عن بعض القراءات المغرضة لتاريخ المجتمع الجزائري من طرف المؤرخين الفرنسيين الذين زيّفوا الحقائق، فحرص الكاتب على دحض الحجج الباطلة وكشف الحقائق الناصعة، وهو ما صرّح به في مقدمة كتابه هذا[30]، كتوضيحه مثلا أن الثورة الشعبية الجزائرية قامت في حركة جماهيرية عارمة ومنظمة أحسن تنظيم، وأن جيش التحرير الوطني لم يكن مجرّد عصابة لا سلاح لها، حيث يقول: « ولا يتصوّر أحد أن هذا الجيش مجرّد عصابة لا سلاح لها، بالمقارنة مع جيش آخر أكثر تنظيما وأقوى منه عتادا. إن الوقائع التاريخية وبعض المعارك المشهورة في عهد الثورة قد رفعت هذا الجيش إلى صف الجيوش القوية »[31].

وكذلك ما ذكره "أحمد طالب الإبراهيمي" حول السياسة الاستيطانية الهمجية الهادفة إلى تغريق المجتمع الجزائري في دوامة الجهل والأمية، وذلك لتسهيل مسخ وطمس معالم هويّته؛ حيث يقول: « إن فرنسا لم تكتف بتجريد الإنسان الجزائري من أرضه، ومسخ شخصيته، بل عملت كذلك على إفساد الأفئدة والعقول، وقد تجلى عملها التخريبي

في إغلاق المساجد والمدارس التي كانت تعلّم العربية، وفي هدم الزوايا لأنها كانت مراكز لتثقيف الشبان وغرس روح المقاومة في نفوسهم، كما حوّلت الزوايا التي سلمت من التخريب إلى أوكار تدين لها بالولاء »[32].

لأجل إظهار مثل هذه الحقائق، وإبراز هذه الوقائع، قام الدكتور "حنفي بن عيسى" بمثل هذه الترجمات؛ فهو لم يترجم أي كتاب وقع في يده، إنما اختار بعناية ما أراد أن ينقل إلى اللغة العربية، وهذا أكيد أنه نابع من روح وطنية كبيرة، ودعم للقضية الجزائرية، ورغبة جامحة في توضيح ملابساتها بغية نشر الوعي بين أفراد المجتمع الجزائري.

4.4 الدين الإسلامي: هو جزء لا يتجزأ من الهوية الوطنية في المجتمع العربي عامة والجزائري خاصة، فهو مصدر لمجموعة من التعاليم والعبادات التي توجه الإنسان حول الالتزام بالقيم الإسلامية كالعدل والحق والخير والعلم والعمل، مما يؤدي إحياء الضمير، وهذا يمثل جانبا مهما لدعم الهوية الوطنية، ولذلك نلمح الدكتور "حنفي بن عيسى" في هذا النص من قصته "الشمس لا تشرق من باريس" يوحي بموقفه اتجاه المعتقدات الدينية: «... حتى أسمع الصدى يدوي في الكنائس الموحشة والممرات المقوسة والساحات الهادئة...»[33]، ففي هذه العبارة يمكننا قراءة وصف "حنفي بن عيسى" للكنائس بأنها موحشة: أن هذه الكنائس مخيفة ينتاب الشخص الفزع منها؛ إما لعدم ارتياحه فيها فلا يدخلها؛ لأنها لا تمثل رمز ديانته ولا مكان عبادته، وإما لأنها فارغة وخالية على عروشها، فلا أحد يدخلها، وهذا يحيلنا أيضا إلى أنها مكان لا يرغب الناس البقاء فيه، على عكس أن ما هو معروف أن أماكن العبادة تكون ممتلئة ترتاح النفس فيها وتطمئن. وفي كلتا الحالتين نستنتج أن الكنائس بالنسبة "لحنفي بن عيسى" مكان لا يمثل له شيئا سوى أنه يوحي بالخوف والقلق، وبالتالي ليس رمزا من رموز عقيدته الدينية.

5.4 الثقافة الجزائرية: وردت بصورة واضحة في قصة "في حي القصبة"، في المقطع الذي يقول فيه "حنفي بن عيسى": « سنحمل القنابل اليدوية تحت لحافنا الأبيض »، ليضيف قائلا: « سألبس اللحاف الأبيض الخاص بنا بنساء العاصمة، وسأضع فوق وجهي برقعا، ولا يبدو من وجهي سوى الجبين والعينين...، عليّ منذ اليوم أن أرتدي هذا اللحاف الذي يوحي

بالطهر والبراءة »، ففي هذا الكلام صورة واضحة عن الثقافة الجزائرية التي تظهر في اللباس أو الزيّ الأصلي للجزائريات، وبالضبط لباس نساء العاصمة المتمثل في (اللحاف الأبيض)، ويظهر أن "حنفي بن عيسى" يفخر بهذا الزيّ الأصيل، الذي يرى أنه يرمز لطهارة وبراءة المرأة الجزائرية.

وقضية الثقافة الجزائرية هذه كانت من المحاور الأساسية التي تناولتها الكتب التي ترجمها الدكتور "حنفي بن عيسى"، ولعلّ هذا من أحد الأسباب التي دفعته إلى ترجمتها؛ لأنه يفخر بهذه الثقافة التي يقول عنها "أحمد طالب الإبراهيمي" أنها: « كانت ثقافة وطنية، أصيلة تستمد قوتها من التراث القومي، وتستخدم اللغة القومية للتعبير عن ذاتها»[34]، وما عبّر عنه "مصطفى الأشرف" حول عقلية الشعب الجزائري الثقافية الواعية قائلا: « أن الشعب العريق في الثقافة لا يتحمّل الفراغ الثقافي، ولكي يشبّع هذه الحاجة، فهو لا يرى مانعا من استعارة لغة أخرى بدلا من لغته التي أصبحت محرّمة عليه كأداة للتخاطب...، فالجزائريّ الذي شهد الصراع بين القديم والجديد، قد ظلّ متمسّكا ببعض القيم الأخلاقية التي ورثها من القرون الوسطى، على أن هذا لم يمنعه من أن يميّز تمييزا واضحا أو غامضا بين التراث الإنساني والديني الذي لم تخمُد جذوته في قلبه أبدا، وبين مقتضيات العصر »[35].

6.4 البعد القومي العربي: إن الدكتور "حنفي بن عيسى" كغيره من الجزائريين الذين يؤمنون بوحدة الأمة العربية، ويتمسكون بأواصر الأخوة الصداقة بين الشعوب العربية، ويعبرون بفرح عن دعم الأوطان العربية للجزائر أثناء الاستعمار، وتضامن شعوبها مع الشعب الجزائري إبان الثورة المجيدة، وهو ما يتضح فيما ذكره في قصة "الشمس لا تشرق من باريس" « إن شمسنا لا تشرق من باريس؛ لأن أشعتها الرقيقة الناعمة تحمل إلينا كل صباح رسالة التضامن والمحبة من إخواننا عرب المشرق ومن أصدقائنا في كل مكان...»[36].

بل نجده يعزز هذا الانتماء القومي العربي في الإهداء الذي ذكره في بداية قصته "في حي القصبة" «...إلى جميلة وأمثال جميلة بوحيرد من النساء العربيات، أهدي هذه القصة »[37].

5. خاتمة:

توصلنا من خلال دراستنا هذه إلى جملة من النتائج، أهمها:

– أن الدكتور "حنفي بن عيسى" من النخبة المتميزة الذين ناضلوا من أجل وطنهم بأقلامهم، والذين يستحقون فعلا الوقوف عندهم وقفة إجلال واحترام، وتقدير لكلّ ما قدموه وما ساهموا به لنصرة أرض الآباء والأجداد، وهذا أقل ما يمكن أن نفي به لهم حقهم.

– أن المقصود بالهوية الوطنية: مجموعة المعتقدات والقيم والتقاليد الثقافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تبلور نظام الحياة وبيئته، والتي تميز مجتمعا عن غيره، وتمثل قاسما مشتركا بين أفراد الوطن الواحد، وهي تتكون من عدة عناصر كاللغة، والدين، والثقافة، والدين، والانتماء للوطن...، وغيرها.

– أن الهوية الوطنية للمفكر الفذّ "حنفي بن عيسى" بارزة وساطعة كنور الشمس في أي شيء كتبه بلغته العربية، أو في أي كتاب أو رواية ترجمها، والملفت للانتباه هنا أنه رغم إتقانه للغات الأجنبية، إلا أنه لم يكتب سوى بلغته العربية، وهذا أكبر دليل على حبه لهذه اللغة التي يجب المحافظة عليها.

– أن الدكتور "حنفي بن عيسى" كان مبدعا أدبيا، وقاصا أجاد فنيا وموضوعيا في الجنس القصصي، على الرغم من أنه لم يصرّح بذلك في حياته، ولم يشر المؤرخون والباحثون إلى ذلك بعد وفاته، وبقيت التساؤلات قائمة حول سبب إقلاعه عن الكتابة القصصية بعد الاستقلال.

– حقيقة تميّز وتألق هذا الرجل في فن الترجمة، وإثراؤه للعمل التعريبي في الجزائر، وكذا انتقاؤه بعناية فائقة لما كان يترجمه من مؤلفات، خاصة الجزائرية منها التي كانت تعنى بقضايا وطنه.

وفي الأخير نقول أنه من المؤسف حقا أنه لم يحظ بالتفاتة لائقة من طرف السلطات الوصية، ولا من الباحثين الأكاديميين، ولا بتكريم يليق بشخصه، ليس هذا فحسب، بل إن المواقع الإلكترونية ومختلف المقالات والكتب التي تحدثت عن "حنفي بن عيسى" وإن كانت نادرة، لم تشر حتى إلى تاريخ وفاته، فمبدعنا هذا كتب في صمت ورحل في صمت، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

6. الإحالات والهوامش:

1. ينظر: مجموعة من الأساتذة، تحت إشراف: رابح، خدوسي، (2014م)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، الجزء الأول، منشورات دار الحضارة، الجزائر، ص 737-738.
2. ينظر: بن الدين، جيدل، هؤلاء كتبوا القصة القصيرة إبّان حرب التحرير(2): كتابة القصة القصيرة إبّان حرب التحرير: بعض القصاصين المغمورين (الجزء الثاني): حنفي بن عيسى نموذجا، موقع مجلة نفحة https://www.nafhamag.com، تاريخ الاطلاع: 2021/07/08.
3. تدور أحداث هذه القصة حول فتاة في العشرينيات من عمرها تدعى "لطيفة" تسكن في حي القصبة بالعاصمة، تخلت عن مقاعد الدراسة لتلتحق بصفوف جيش التحرير الوطني مثل باقي زميلاتها، حيث تقوم بمهمة صعبة رفقة شقيق زميلتها في الدراسة "جميلة"، المدعو "مخلوف"، حيث تتمثل هذه المهمة في إلقاء القنابل على مركز الشرطة الفرنسية بالحي، لتسقط بعد إلقاء القنبلة مغما عليها، ويكون آخر ما تسمعه هو هتاف "مخلوف": « تسقط فرنسا المجرمة..تحيا الجزائر»
4. تتحدث القصة عن شخصية "سمير"، الذي تخرج من جامعة لندن كأستاذ للغة الإنجليزية، ورجع ليستقر في دمشق مشتغلا في التدريس، وهو جزائري تجاوز الأربعين سنة متزوج وليس له أبناء، يتملكه حنين الأبوة وحنين الوطن، ويشعر بالضغط الكبير بسبب ارتباطاته الكثيرة، والتزاماته بالمواعيد التي لا تنتهي، فيحس بأنه مقيد ولا يشعر بطعم الحياة ولا بروعة الطبيعة، فيذهب ذات يوم دون وجهته، ليلتقي بطفل صغير في الثامن من عمره، شرده الصهاينة، ليشعر بعد هذا اللقاء بالحياة تدب فيه، وهو يحاول إعادة الفتى إلى وطنه بفرح كبير.
5. هذه القصة تدور أحداثها في باريس، تتحدث عن طالب جزائري يحصل على منحة دراسية في فرنسا، ليلتقي هناك ببعض أصدقائه الطلبة الجزائريين، لكنهم يتعرضون إلى الاضطهاد والضرب والسجن من طرف السلطات الفرنسية بباريس، ويلقى القبض عليهم الواحد تلو الآخر، ليكون دور هذا الطالب الذي يلقبه زملاؤه بـ"سقراط" في الأخير في غرفته داخل المدينة الجامعية.
6. رابح، خدوسي، مرجع سابق، ص 738.
7. "أحمد عكاش" دكتور في الاقتصاد السياسي وإطار سامي بوزارة العمل (مدير مركزي للأجور)، وهو مناضل، حيث قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بحظر جريدة "ليبيرتي" التي كان يرأس تحريرها بسبب تحريضه للشبان الجزائريين للالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني في اجتماع عقده في سوق الماشية بالحراش 1955م، واعتقل في 1957، وتم سجنه في (فيلا سيزيني) حيث عذّب وحكم عليه سنة 1960م بالإعدام، ثم خفّف الحكم إلى 20 سنة بعد نقله إلى أحد سجون فرنسا، والذي تمكن من الهرب منه شهر جانفي 1962 ليعود إلى الوطن بغية مواصلة النضال. ينظر: **بن الدين، جيدل**، هؤلاء كتبوا القصة القصيرة إبّان حرب التحرير، مرجع سابق.
8. الجريدة الرسمية 32 المؤرخة في 31 ماي 2017.
9. مسعودة، طلحة، وعصام رزاق، لبزة، (جوان 2017م)، رهانات الهوية الوطنية في ظل الميديا الجديدة. بين الواقع والمتوقع، مجلة السراج في التربية وقضايا المجتمع، العدد 02، ص 71.

10. سيف بن راشد، الجابري، (1432هـ/2011م)، الهوية الوطنية (وطني هويتي)، الطبعة 02، دار الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي: إدارة البحوث، الإمارات العربية المتحدة، ص 27.
11. مسعودة، طلحة، وعصام رزاق، لبزة، مرجع سابق، ص 72.
12. ينظر: بن الدين، جيدل، مرجع سابق.
13. الأشرف، مصطفى، (2007م)، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، غلاف الكتاب.
14. حفناوي، بعلي، (2015م)، تحولات الخطاب الروائي الجزائري: آفاق التجديد ومتاهات التجريب، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ص 94-95.
15. أحمد، طالب الإبراهيمي، (د-ت)، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972، ترجمة: حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 16.
16. الأشرف، مصطفى، مرجع سابق، ص 432.
17. بن عيسى، حنفي، (فبراير 1959م)، في حي القصبة، مجلة الآداب، بيروت: لبنان، العدد 07، ص 31.
18. المرجع نفسه، ص 31.
19. بن عيسى، حنفي، (جوان 1961)، الشمس لا تشرق من باريس، مجلة الآداب، بيروت: لبنان، العدد 09، ص 20.
20. المرجع نفسه، ص 21.
21. المرجع نفسه، ص 22.
22. بن عيسى، حنفي، (نوفمبر 1960)، عائدون، مجلة الآداب، بيروت: لبنان، العدد 08، ص 57.
23. مولود فرعون، (1990م)، الدروب الوعرة، ترجمة: حنفي بن عيسى، الطبعة 05، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، غلاف الرواية.
24. بن عيسى، حنفي، (فبراير 1959م)، في حي القصبة، مرجع سابق، ص 31.
25. المرجع نفسه، ص 31.
26. المرجع نفسه، ص 31.
27. ألّف "بن عيسى سوامي" مع كل من "بشير بو معزة" و"عبد القادر بلحاج" و"مصطفى فرانسيس" و"موسى قبايلي" كتاب جماعي بعنوان: الجرح المتعفن (La gangrene) في أحد سجون باريس، والمقطع المذكور هو من الكتاب.
28. بن عيسى، حنفي، (جوان 1961)، الشمس لا تشرق من باريس، مرجع سابق، ص 20.
29. حفناوي، بعلي، (2017م)، الترجمة وجماليات التلقي: المبادلات الفكرية والثقافية، دار اليازوري العلمية، الأردن، ص 276.
30. ينظر: الأشرف، مصطفى، (2007م)، الجزائر: الأمة والمجتمع، مرجع سابق، ص 05-06.
31. المرجع نفسه، ص 378.
32. أحمد، طالب الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 14-15.
33. بن عيسى، حنفي، (جوان 1961)، الشمس لا تشرق من باريس، مرجع سابق، ص22.

34. أحمد، طالب الإبراهيمي، مرجع سابق، ص14.
35. الأشرف، مصطفى، مرجع سابق، ص 416.
36. بن عيسى، حنفي، (جوان 1961)، الشمس لا تشرق من باريس، مرجع سابق، ص 22.
37. بن عيسى، حنفي، (فبراير 1959م)، في حي القصبة، مرجع سابق، ص 31.